

بيت المقدس : ما بين أخذ الفرنج لها 492هـ // 1098م، وتحريرها على يد صلاح الدين الايوبي 583 هـ // 1187م دراسة مقارنة بين الحدثين

الدكتور زلماط إلياس

جامعة ابن خلدون تيارت

ملخص:

لم تكن القدس بالنسبة للمسلمين مجرد مدينة على الخريطة، وإنما كانت بالنسبة لهم أولى القبلتين ومهوى أفئدة الناس أجمعين، كما كانت خلال العصور الإسلامية، مجمعا للمدارس ومزارا لكل راغب في العلم والمعرفة، فأثبتت القدس على مدى التاريخ أنها مدينة السلام لكل بني الانسان.

إلى أن كان زمن رديء، ضعف فيه المسلمون فتسلط عليهم النصارى الصليبيين، فطردوا منها من كان بها من المسلمين واليهود، ومات التسامح في بلد التسامح، وانتقل زمامها وساروقفا على المستوطن الغريب القادم من الغرب الأوربي، ولم يعد إلهها السلام إلا بعد أن استعاضها المسلمون تحت راية صلاح الدين الايوبي.

ويهدف المقال إلى إلقاء الضوء على مدينة "القدس" مدينة السلام، من خلال وضع مقارنة بين حدثين بارزين في التاريخ الإسلامي لهذه المدينة أولهما يوم أخذ الفرنج لها سنة 492هـ/1098م، والآخر يوم تحريرها على يد صلاح الدين الايوبي سنة 583هـ/1187م.

Résumé

Ils n'étaient pas Jérusalem pour les musulmans juste une ville sur la carte .mais c'était pour eux premiers bisous et leur direction tous c'était pendant la période islamique ; complexe scolaire et forum pour les apprenants, tout au long de l'histoire, Jérusalem s'est révélée être la ville de la paix pour tous les êtres humains .

La situation a changé les Musulmans faibles , Les Croisés les ont vaincus, Ils en ont expulsé les musulmans et les juifs, et la tolérance dans le pays de la tolérance est morte , Le souverain est

devenu l'étrange colon venant de l'Europe occidentale, Et la paix n'est plus tant qu'elle n'a pas été restaurée par les musulmans par Salah al-Din Ayyubi .

L'article vise à faire Suivi la ville de "Jérusalem", ville de paix En comparant les deux événements majeurs dans l'histoire islamique de cette ville, le premier ; a pris les Francs en 1098 , et l'autre ; le jour de la libération par Salah al-Din Ayyubi en 1187 .

مقدمة :

لم تتعرض مدينة على وجه الأرض على مدى حقب التاريخ المختلفة حسب تقديرنا، لمثل ما تعرضت له مدينة بيت المقدس، ولعل السبب في ذلك أنها كانت موطنًا لكثير من الأنبياء والرسل عليهم السلام، ويقول عنها القزويني رحمه الله: "وهي المدينة المشهورة التي كانت محل الأنبياء وقبله الشرايط ومهبط الوحي...ونُقل عن ابن عباس رضي الله عنه قوله: " البيت المقدس بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء، وما فيه موضع شبر إلا وصلّى فيه نبي أو قام فيه ملك..."¹.

وحسب هذه المدينة أن اجتمعت فيها مقدسات الأديان السماوية الثلاثة، ويروى أن كثيرا من المحدثين يجمعون على أن الله عز وجل منذ أن أهبط آدم عليه السلام إلى الدنيا لم يبعث نبيا إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس، وقد صلى إليها النبي صلى الله عليه وسلم قبل تحول القبلة إلى المسجد الحرام².

كما شهدت أرض بيت المقدس آثارا لموسى وعيسى عليهما السلام، أما اليهود فيزعمون نسبة بعض الأماكن بها إلى كثير من أجدادهم الأوائل، و أما النصارى فيرون أن لهم بها الكثير من الأماكن المقدسة التي تربط بآرائهم الديني مثل كنيسة القيامة إذ يحج إليها المسيحيون من مختلف الأقطار، بل إن المسيحيين الغربيين كانوا يعتقدون في العصور الوسطى بوجه خاص أن زيارة بعض الأماكن بها قد تهب التحلل والتوبة من الذنوب"³، لذا فهي قرّة أعين أتباع الرسالات السماوية الثلاث ومهوى أفئدتهم .

¹ - القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر بيروت سنة 1960م ص 159.

² - علي السيد علي، القدس في العصر المملوكي ، دار الفكر ، ص 9.

³ - ران سيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترالسيد الباز العريني ، بيروت 1969م ، ج 1 ص 71.

ومازال أتباع الديانات السماوية إلى اليوم في تنافس شديد لنيل شرف امتلاك هذه الأرض المقدسة لما بيناه سابقا من مكانة روحية، ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نناقش ما حدث خلال تلك الحقب، في لمحات تاريخية، وكان أن قصدت بذلك وضع مقارنة بين احتلال الصليبيين لهذه الأرض بالقوة سنة 492هـ // 1098م، وتحجيرها على يد صلاح الدين الأيوبي عام 583 هـ // 1187م، فيقال إن سبيل المتسلطين لدوام السلطة أحد أمرين : إما الاحسان الذي يمتلك النفوس، و العدل الذي يحفظ الحقوق، و التساهل الذي يستهوي الافئدة ، و الرحمة التي تأسر العواطف ، وإما محق مقومات المغلوب الروحية و المادية بالاعتقالات، فأَي السُبل سلك كل من الصليبيين و المسلمين في امتلاك هذه الأرض المقدسة ؟

وللإجابة عن هذا التساؤل اجتبتنا حقتين من حقب تاريخ هذه المدينة؛ أولهما لما اغتصبها النصارى من أيدي المسلمين، و الأخرى لما فتحها صلاح الدين، لنقف على حيثيات الحدثين بالتحليل وأبدأ بأول الحدثين فأقول:

اغتصاب الصليبيين لبيت المقدس من أيدي المسلمين 492هـ // 1098م:

يقول ابن الأثير رحمه الله: كان بيت المقدس لتاج الدولة تتش¹... فلما رأى المصريون ضعف الأتراك (في بيت المقدس) ساروا إليه، وفي مقدمهم الأفضل بن بدر الجمالي²، وملكوه بالأمان في شعبان سنة 489هـ // 1095م فقصده الفرنج بعد أن حاصروا عكا فلم يقدروا عليها، فلما وصلوا إليه حاصروه نيفا وأربعين يوما، وملكوا المدينة ضحوة نهار الجمعة لسبع بقين من شعبان ، وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعا يقتلون فيه المسلمين³.

- دخول الصليبيين بيت المقدس وقتل من بها سنة 492هـ // 1098م :

¹ - تتش تاج الدولة: أبو سعيد ابن ألب رسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي، استولى على دمشق، وذلك في سنة إحدى وسبعين وأربع مائة. الوافي بالوفيات ج3 ص456.

² - الأفضل بن بدر الجمالي 526هـ : ابن بدر الدين الجمالي أمير الجيوش الفاطمي ؛ أرمي الجنس، وكان أبوه من الرجال المعدودين في ذوي الآراء وقوة العزم والشهامة. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج2 ص28 ، الذهبي ، تاريخ الإسلام ، ج35 ص 385. الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج15 ص 200.

³ - ابن كثير، البداية و النهاية ج8 ص 257.

دارت مذابح شنيعة عند دخول الصليبيين بيت المقدس، ولنبدأ بما كتبه المؤرخون الأوروبيون الذين كانوا في الأمر على فريقين، منهم المؤيد ومنهم المعارض، ثم نشر لما قاله المؤرخون المسلمون.

وقد سجل المؤرخون المسيحيون، هذه المجازر في كتبهم فقال أحدهم: "إن جنودنا كانوا يخصوصون بسيقاتهم حتى الركب في دماء المسلمين¹، واعتصم جموع من المسلمين في مسجد عمر، وقد سجل أحد الكهنة المسيحيين ما رأى متألماً... "لقد أفرط قومنا في سفك الدماء... وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهناك... وكانت الأيادي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث اقتطعت منها"². وقال المؤرخ الصليبي وليام الصوري: "كان بيت المقدس مخاضة واسعة من دماء المسلمين"³.

ويقول في ذلك أيضاً، بعد ذكره لهذه المجازر: "...وغمر المكان كله بدم الضحايا، لقد كان بالفعل حكم الله القويم الذي قضى على الذين دنسوا قبر المسيح بطقوسهم الخرافية"⁴، ومن المؤكد حسب هذه الرواية، أن الصليبيين كانوا متعطشين لسفك دماء المسلمين بداعي الدين، ولا شك أن رجال الدين المسيحيين لهم دور أساسي في هذه المذبحة، فقد كانوا يحفزون الصليبيين للانتقام للسيد المسيح ابتداءً بالبابا أوربان الثاني وانتهاءً برجال الدين المرافقين للحملة الصليبية⁵. ويذكر المؤرخ المسيحي "نقلا زيادة" عند حديثه عن الحملة الصليبية الأولى قوله: "و الحملة الأولى، والفضائح التي ارتكبتها في طريقها وفي احتلال بيت المقدس ليست مما يشرف، وقد تظهر لنا رغبات الصليبيين من خلال تصرفهم مع مسيحي

¹ - عبد الحميد الكاتب، القدس، دار الشروق، القاهرة ص 83.

² - نفسه ص 83.

³ - وليام الصوري الحروب الصليبية، تح حسن شبلي، الهيئة العربية للكتاب، القاهرة سنة 1994م، ج 1 ص 125.

⁴ - عبد العزيز بن ابراهيم اليعمري، الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص 116. وليام الصوري، ج 1 ص 436.

⁵ - قاسم عبده قاسم ماهية الحروب الصليبية، ص 150. حسن عبد الوهاب حسين، مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، مصر سنة 1997م ص 13.

فلسطين أنفسهم، فقد استولوا على أديرتهم، وطردوهم من الكنائس والبيوت، فتبعثر المسيحيون في جهات فلسطين و الشرق الأردن، وسار البطريك إلى القاهرة ليعيش في حماية الفاطميين¹.

وقد استشهدت بكلام "نقلا زيادة" في هذا المقام، من باب قوله تعالى : "وشهد شاهد من أهلها"² ، ولو سلمنا جدلا لما ذكره المؤرخ وليام الصوري من أن المسلمين دنسوا قبر المسيح المزعوم، فهل هذا يعد متكاً لتبرير جرائمهم التي استنكرها حتى المسيحيون، وإخراج أهلها النصارى من دورهم وكنائسهم، أكبر جرماً في كل الملل، فهل فعل المسلمون ذلك بعد أن ظهروا عليهم عهد صلاح الدين ؟؟ كلا.

وبعد انجلاء هذه الواقعة، تجلت فداحة الكارثة التي حلت بالمسلمين ، باحتلال بيت المقدس ، بالإضافة إلى المجازر التي ارتكبتها الغزاة الصليبيون ، ومن ناصروهم من العبيديين من جهة أخرى³.

أما المسلمون فنقلنا ما قاله ابن الاثير حين قال : "وقتل الفرنج بالمسجد الاقصى ما يزيد عن سبعين ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الاوطان، وجاور بذلك الموضع الشريف... وغنموا منه ما لا يقع عليه الاحصاء"⁴.

وقد قال عنها أيضا : "...وَجُمِعَتْ بعد ذلك جُثث القتلى ، وطُرحَتْ خارج أبواب المدينة، فتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعاً، وما تأتى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحه كهذه المذبحة"⁵.

وقال ابن الجوزي رحمه الله في حوادث سنة اثنتين وتسعين وأربع مائة "وفيهما : أخذ الافرنج بيت المقدس في يوم الجمعة ثالث عشر شعبان ، وقتلوا فيه زائداً على سبعين الف مسلم، وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا فضة، كل قنديل

¹ - مصطفى وهبة ، موجز في تاريخ الحروب الصليبية ، مكتبة الايمان ، القاهرة ، ط 1 سنة 1418هـ // 1997م ص 26.

² - سورة يوسف الآية 26.

³ - من ناصرو وتحالف مع الصليبيين له قسط من المسؤولية في هذه المجازر فهو الذي ذلل لهم الطريق .

⁴ - ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج 9 ص 20 .

⁵ - ابن الاثير ، الكامل في التاريخ : ج 8 ، ص 424.

وزنه ثلاثة آلاف وستمئة درهم، و أخذوا تنور فضة وزنه أربعون رطلا بالشامي، وأخذوا نيفا وعشرين قنديل من الذهب، ومن الثياب وغيره ما لا يحصى"¹.

وبعد هذا العرض لما خلفته الحملة الصليبية الهوجاء على قاطني بيت المقدس، يجدر بنا الوقوف للمقارنة بين ما قام به المسلمون زمن الفتح الأول زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وما أحدثه هؤلاء الهمج الصليبيون، ولنستشهد بما ذكره المؤرخ الفرنسي "جوستان لبون" حين وضع مقارنة بين فتح العرب في صدر الاسلام وبين الحروب الصليبية فقال: "فأولئك العرب الذين خرجوا من الصحراء، أعطوا المسيحيين في القدس " العهد العمري" المشهور الذي تعهد فيه المسلمون بالمحافظة على كنائس المسيحيين ومقدساتهم، وأما أولئك الاوربيين، فكانوا يجوبون الشوارع ويصعدون إلى سطوح البيوت ليروا غليلهم"² فهكذا بزغ نور الاسلام بما يحمله من تعاليم سمحة، أبهرت حتى الاعداء.

أرسل أهل بيت المقدس من يستنفر المسلمين، قال ابن الجوزي في ذلك: " وورد المستنفرون من بلاد الشام، و أخبروا بما جرى على المسلمين، وقام القاضي أبو سعيد الهروي قاضي دمشق في الديوان، و أورد كلاما أبكى الحاضرين، وندب من الديوان من يمضي إلى العسكر ويعرفهم حال هذه المصيبة"³، غير أن هذا الاستنفار لم يجد له صدى عند الملوك المسلمين في ذلك الوقت، وما لجرح بميت إيلام، وعادوا خائبين كما قال ابن الاثير: "عادوا من دون بلوغ أدب ولا قضاء حاجة، واختلف السلاطين، فتمكن الفرنج من البلاد فإنا لله وإنا إليه راجعون"⁴.

ظروف سقوط بيت المقدس :

هذه النكسة للأمة كانت نتاج تضافر مجموعة عوامل سهلت على الأمة الضعف والهوان ، وسنغطي صورة عن الاوضاع التي كانت سائدة في تلك الأزمان ،علنا نتضح لنا ظروف سقوط بيت المقدس .

¹ - المنتظم في تاريخ الامم و الملوك ، ج 17 ص 48.

² - عبد الحميد الكاتب ، القدس ، دار الشروق ، القاهرة ص 84.

³ - قال ابن الجوزي ثم وقع التقاعد فقال أبو المظفر الأبيوري قصيدة المنتظم في تاريخ الامم و الملوك ، ج 17 ص 48.

⁴ - ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج 9 ص 21.

1-الأوضاع العامة لدول المشرق الاسلامي قبيل الغزو الصليبيين خلال النصف الأول من القرن 6هـ // 12م:

استمر الصراع بين الفاطميين والسلاجقة قائما ببلاد الشام قبيل وصول الصليبيين، ليجعل من بلاد الشام مرتعا خصبا للفرقة والانقسام، وليزيد من تفككها وضعفها، مما سهل بعد ذلك على الصليبيين مهمة الاستيلاء عليها وهناك من الآراء ما يفيد أنه نتيجة لذلك الصراع الذي نشب بين العبيدين والسلاجقة ببلاد الشام، وبسبب ضعف الدولة العبيدية في هذه المرحلة وتخوفها من السلاجقة، وزحفهم على الديار المصرية، أرسل العبيديون إلى الغرب الأوربي يستنجدون بهم، ويدعونهم للحضور إلى بلاد الشام¹.

ويعبر ابن الأثير عن ذلك بقوله: "وقيل أن أصحاب مصر من البلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول الأقيس (أتسز) إلى مصر وحصرها، خافوا فأرسلوا إلى الفرنجة يدعوههم إلى بلاد الشام ليملكوها ويكونوا بينهم وبين المسلمين"².

ويمكن استنباط من كلام ابن الأثير بعض الأمور التي نسجلها فيما يلي:

- أن ابن الأثير قد ساوى بين العبيديين (الفاطميين) الشيعة وبين الصليبيين حلفائهم ويستنبط ذلك من قوله: "ويكونوا بينهم وبين المسلمين" فحدد فئة واحدة مسلمة.
- يلمس من كلامه مدى جنق أهل السنة على الشيعة، وذلك راجع للفتن التي كانت مستشرية بين الطائفتين خلال تلك الفترة وما جرى قبلها من أحداث.
- يضاف إلى ما سبق، أن العبيديين تميزوا بالكيد لأهل السنة رغم ادعائهم للدين ومحبة آل البيت.

-وأخيرا تشكيك بعض الباحثين في مدى صحة هذا القول وعدمه.

فيذهب الباحث سعد عبد الفتاح عشور، إلى التشكيك في حادثة إرسال العبيديين لرسالة الاستنجد بالصليبيين ويرجع ذلك إلى المراسلة التي تلقاها الصليبيون بعد

¹ - ابن الأثير، الكامل ج 10 ص 182، جمال الدين السيوطي، ت 911هـ 1505م تاريخ الخلفاء، تحقيق أبو الفضل إبراهيم دار إحياء الكتب العلمية القاهرة سنة 1387هـ 1967م، ص 279.

² - يعني ابن الأثير بالمسلمين في ختام كلامه: أهل السنة. ابن الأثير الكامل في التاريخ : ج 10 ص 345.

مجيئهم إلى بلاد الشام سنة 492هـ/1098م " حيث أرسل إليهم الوزير الأفضل سفارة وصلتهم وهم أمام أنطاكية، مفادها أن يتعاون الطرفان في القضاء على السلاجقة وأن تقسم الغنيمة بينهما مناصفة فيأخذ الصليبيون القسم الشمالي (الشام) ويأخذ هو القسم الجنوبي (بيت المقدس)¹، وأن هذه السفارة هي التي أخطأ بعض المؤرخين في ذكرها وأن الاتصال بينهم لم يتم إلا بعد حضورهم إلى بلاد المشرق الإسلامي.

فلو سلمنا جدلاً أن العبيديين لم تكن لهم اليد الطولى في استجلاب أعداء الإسلام من الصليبيين إلى بلادهم، فيكفهم ذلاً ومهانة أنهم رحبوا بالغزاة، وأكسبوهم ثقة في أنفسهم، ووعدوهم بنصرهم والتمكين لهم في أرض الإسلام علماً أن الذين يسلكون مسلك الذب عنهم، إما أنهم لا يعرفون حقيقة الشيعة وإما أنهم قالوا ذلك لغاية في نفوسهم.

ومما يستدل به في هذا المقام على أن العبيديين كانت لهم بوادر الاتصال بالصليبيين، والتي تجعل ما ذكره ابن الأثير يقوى عندنا، أن بعض المراجع أشارت إلى أن الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين كان قد نصح الصليبيين عند مرورهم بالقسطنطينية في طريقهم إلى الشرق 491- 492هـ // 1096-1097م بأن يحاولوا محالفة الفاطميين في مصر، ليكونوا لهم عضداً ضد السلاجقة، وقد تحقق ذلك بأن أرسلت سفارة من طرف الصليبيين لتحقيق هذا التحالف².

ومما يزيد من تعجبي ويثير حفيظتي؛ قول بعض الباحثين في التعليق على هذا التحالف: "أن الفاطميين كانوا يجهلون حقيقة الغزو الصليبي، والهدف من ورائه"³، هذا مما هو عار عن الصحة، فهو يباين العقل والنقل، فهذا العمل لا يصدر عن مَنْ لهم النخوة والغيرة على أرض الإسلام والمسلمين، فكيف يصدر عن أناس يدعون الدين، والزهد والورع، ومحبة آل الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم أول من يطعن الأمة في ظهرها .

¹ - سعد عبد الفتاح عاشور ، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص 171.

² - نفسه ، 172.

³ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج 5 ص 147 .

والواقع أن الموقف السلبي المتخاذل، الذي وقفته الدولة العبيدية من الحملة الصليبية الأولى عند وصولها إلى شمال الشام، أثار حيرة المؤرخين المسلمين، وقد لفت انتباهي عبارة ذكرها المؤرخ أبو المحاسن من موقف العبيديين وعدم مشاركتهم القوى الإسلامية التي نهضت للدفاع عن أنطاكية ضد الصليبيين، قوله: "ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر، وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال..."¹.

ثم يسترسل أبو المحاسن فيشرح كيف خرجت عساكر المسلمين من كل أقطار العالم الإسلامي لصد الزحف الصليبي فيقول: "كل ذلك وعساكر مصر لم تنهيا للخروج"²، على أن الإجابة عن هذا التساؤل الذي طرحه أبو المحاسن بينة واضحة، هي أنه إذا كان الأفضل بن بدر الجمالي قد قرر أن يعمل، فإن القرار الذي اتخذه بالعمل كان موجهاً ضد الخلافة العباسية لا ضد الصليبيين، فانتهاز الأفضل فرصة انشغال الجيوش الإسلامية في رد الخطر الصليبي الداهم، ليسترد البلاد والمراكز التي كانت في وقت ما تحت الخلافة العبيدية، وما كادت تنتهي سنة 492هـ// 1098م، حتى أصبح القسم الجنوبي من الشام تحت سيطرته بما فيه بيت المقدس³.

ولما أدرك الأفضل أن الصليبيين هدفهم المنشود هو بيت المقدس، أرسل إلى الإمبراطور البيزنطي ألكسيس كومنين يسأله عن حركة القوات الصليبية، وأنها تتجه صوب بيت المقدس، فأكرر هذا الأخير⁴.

ولكن لما تكشفت البراهين والدلائل للعبيديين؛ من أن الصليبيين لن يرضوا إلا بالسيطرة على بيت المقدس، حلت الذلة والصغار على العبيديين، وأرسل مقدمهم الأفضل إلى الصليبيين في محاولة يائسة لاسترضائهم بالأموال الكثيرة، والهدايا النفيسة لكل واحد من زعماء الصليبيين، كما يحمل لهم عرضاً من الخليفة العبيدي، مفاده السماح للحجاج الصليبيين بالحج وزيارة كنيسة القيامة في بيت المقدس، على شكل مجموعات من مائتي أو ثلاثمائة حاج بشرط ألا يكونوا مسلحين،

¹ - نفسه، ج 5، ص 147.

² - نفسه، ج 5، ص 148.

³ - ابن الأثير الكامل في التاريخ : ج 10 ص 355، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 135.

⁴ - سعد عبد الفتاح عاشور، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص 174

ولكن الصليبيين ردوا على السفارة الفاطمية بأنهم سيتمكنون من الحج، ولكن بإذن الله لا بإذن الخليفة الفاطمي¹.

وهنا بدأت الحسرة والندامة في معسكر الفاطميين، وانتهت ملامحها بالخزي والمهانة، بعد أن دخل الصليبيون بيت المقدس، فجاسوا خلال الديار، ولم يجدوا فيها من العبيدين غير حامية؛ فذبحوا من فيها عن بكرة أبيهم²، ثم دخلوا مدينة القدس وقتلوا من بها من النساء والأطفال والشيوخ.

أصيب الأفضل بخيبة أمل كبيرة بعد أن كان يعتقد، في وقت ما، بأن الصليبيين سيقنعون بالاستيلاء على شمال بلاد الشام، ويحرصون على صداقة الفاطميين، فلم يسعه عندما وصل إلى عسقلان سوى أن يرسل إليهم يوبخهم على ما فعلوه³، فكان جزاؤه من جنس عمله.

ويُستخلص مما سبق، مآلٌ من استنجد بأعداء الأمة من النصارى، وغيرهم ضد إخوانه المسلمين، فتكون عاقبته خُسرًا، وتبقى له وصمة عار يذكرها التاريخ.

أسباب نكسة المسلمين :

ولنقف وقفة تأمل واستنباط علنا نجد أسباب واضحة لهذه النكسة المخزية للمسلمين في ذلك الوقت، وقد استهوتني كلمة قالها بختنصر للنبي دانيال لما ظهر على بني اسرائيل تلخص لنا سبب النكسة فقال : " بختنصر " ما الذي سلطني على قومك؟ فأجابه دانيال : " عظم خطيئتك ، وظلم قومي أنفسهم "⁴.

ومما ينبغي أن يعلم : أن الذنوب و المعاصي تضر، ولا بد أن ضررها في القلب كضرر السموم في الابدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا و الآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب و المعاصي قال صلى الله عليه وسلم : " إن العبد ليحرم الرزق بذنب يصيبه "⁵، فما الذي أخرج الأبوين من الجنة، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور، إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟ وما الذي أهلك القرون من

¹ - نفسه ، ص 175.

² - سهيل طقوش ، تاريخ السلاجقة ص 243.

³ - سهيل طقوش، تاريخ الفاطميين ، ص 437.

⁴ - ابو عمرو عبد الملك الزغبى، الحوادث العظام في تاريخ الامة الاسلامية دار التقوى ط 1 سنة 2010 ص 18.

⁵ - أخرجه : أحمد في مسنده ج 5 ص 282 .

بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمرها تدميرا؟ وما الذي بعث على بني إسرائيل قوما أولي بأس شديد، فجاسوا خلال الديار وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، و أحرقوا الديار ونهبوا الاموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتَّبَرَّوا ما علوا تتبيرا؟ وما الذي سلط عليهم أنواع العقوبات، مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى: "ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب"¹.

فسنن الله في الخلق أن الله ينصر من نصره، ويخذل من خذله، قال الامام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: "لما فتحت قبرص فرق بين أهلها، فبكي بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالسا وحده يبكي فقلت : يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الاسلام وأهله ؟ فقال : ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى"².

فتقوى الله إذأ: هي العدة في الشدائد، والعون في الملمات، وهي مهبط الروح والطمأنينة، ومتنزل الصبر والسكينة، وهي مبعث القوة واليقين، وهي معراج السمو إلى السماء، وهي التي تثبت الأقدام في المزالق، وتربط على القلوب في الفتن.

ثانيا :تحرير بيت المقدس على يد صلاح الدين الايوبي 583 هـ 1187م:

تغيرت أحوال المسلمين بعد حوالي خمسين عاما، وبذل الله ضعفهم قوة، وخرج من بينهم من نذر نفسه لله في قتال الصليبيين، حتى تم للمسلمين الفتح، على يد صاحب وقعة حطين، السلطان صلاح الدين الأيوبي؛ فكان يوم حطين أعظم انتصار له على الفرنج في فلسطين والساحل الشامي، الذي تلاه استرداد طبرية وعكا ويافا إلى ما بعد بيروت، ثم افتتاح القدس.

-معركة حطين 583هـ // 1187م :

¹ - سورة الاعراف الآية 167.

² - أخرجه أحمد في مسنده ج 4 ص 260.

لا يمكننا الحديث عن فتح بيت المقدس الذي تم على يد الفاتح صلاح الدين الأيوبي ؛ إلا بالمرور على بوابة معركة حطين الفاصلة، وكان لزاما علينا أن نشير إلى الحثثيات هذه الوقعة، وذلك أن صلاح الدين عقد هدنة مع الصليبيين لتنظيم دولته داخلها؛ مدتها أربع سنوات تبتدئ بسنة 580هـ // 1185م¹.

لكن أرنات²؛ ملك الكرك الذي عرف عنه الطيش و الرعونة حتى و صفه أحد المؤرخين بقوله : " لا يستطيع أن يحيى هادئا دون أن يذهب ويسرق"³، فلم يلبث أن انقض فجأة على قافلة كبيرة من المسلمين متجهة من القاهرة إلى دمشق في أواخر سنة 1186م//582هـ، واستولى على كل ما كانت تحمله القافلة من ثروة وبضائع، وأسر رجالها في حصن الكرك حيث سامهم سوء العذاب، وقد وصف ذلك أبو شامة بقوله : " سامهم الشد و الشدة "⁴.

امتعض صلاح الدين لفعلة أرنات الشنيعة، فأرسل إليه مهديدا، طالبا منه رد الأسرى والغنائم، لكن هذا الأخير رفض ذلك، بل ورفض الاستجابة لجاي لوزجنان ملك بيت المقدس عندما طلب منه رد الأسرى والغنائم لصلاح الدين، وهكذا لم يبق للمسلمين إلا خيار الحرب⁵، حسب ما ذكره المقرئزي، ثم اتجه إلى بانياس قرب طبرية لمراقبة الموقف.

جمع الملك لجاي لوزجنان جيشه في الناصرة فدارت المعركة الأولى بين المسلمين والصليبيين قرب صفورية في مايو سنة 1187م//583هـ، وفيها سقط الجيش الصليبي بين قتلى و أسرى، وكان من هول هذا الخبر؛ أن جعل ريموند الثالث

¹ - أحمد حسين، موسوعة تاريخ مصر، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، دت، ج2، ص 620.

² - أرنات : صاحب الكرك والشوبك كان معروفا بحماقاته و رعونته؛ فقد لاقى المسلمون منه الأذى الكثير ووصل به الأمر إلى قطع الطريق على الحجاج المسلمين، السلوك لمعرفة دول الملوك ج1 ص 18، سعد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون و المماليك في مصر و الشام، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة 1996م، ص 61.

³ - سعد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون و المماليك في مصر و الشام، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة 1996م، ص 62

⁴ - أبو شامة الروضتين ج2 ص 75.

⁵ - سعد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 62.

ينقض معاهدته مع صلاح الدين وينظم إلى الجيوش الصليبية التي تجمعت في صفورية استعدادا للانتقام¹.

رد صلاح الدين على ذلك بمهاجمة طبرية التي كانت للصليبيين، ففتحت جيوشه المدينة وأحرقها في يوليو سنة 1187م/583هـ، وإن لم يستطع المسلمون الاستيلاء على قلعتها، ويؤكد المؤرخ أبو شامة أن صلاح الدين كان يستهدف من مهاجمة طبرية أن يجبر الصليبيين من ترك مواقعهم عند صفورية؛ مما يمكنه من إنزال الهزيمة بهم بعد أن يعتريهم التعب لطول الطريق وحرارة الجو².

نجحت خطة صلاح الدين في استدراج العدو إلى حيث أراد، فقد تحرك الجيش الصليبي صوب طبرية للدفاع عنها، وساروا في شهر يوليو سنة 1187م/583هـ في ظروف قاسية بسبب حرارة الجو، وقلة الماء، ووعورة الطريق³.

سُر صلاح الدين لما بلغه من نبا قدوم الصليبيين إلى طبرية وقال: "جاء ما نريد"⁴، وما إن وصلوا إلى قرون حطين⁵، حتى أعطت خطة صلاح الدين أكلها؛ وذلك أن الصليبيين وصلوا في حالة سيئة من الإعياء والعطش، بينما كان المسلمون مدخريين قوتهم ينعمون بالماء العذب والظل المديد، و في شهر يوليو سنة 1187م 583هـ، دارت معركة حطين الشهيرة بين المسلمين و الصليبيين⁶.

ولترك المؤرخ ابن الأثير يصف لنا حيثيات هذه الواقعة حيث قال: "...وجاء العدو المخذول وكان فيهم صاحب عكا وغير ذلك من جميع ملوكهم فتواجه الفريقان وتقابل الجيشان وأسفر وجه الإيمان، واغبر وأقتم وأظلم وجه الكفر والطغيان، ودارت دائرة السوء على عبدة الصلبان... وكان النصر من الله عز وجل⁷.

¹ - سعد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون و المماليك ، ص 62.

² - أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ج 2 ص 76.

³ - King; The knights Hospitallars in the Holy Land, pp125.126.

⁴ - أبو شامة الروضتين ج 2 ص 76.

⁵ - قرون حطين : هضبة مرتفعة على سفح طبرية، الأيوبيون و المماليك في مصر والشام، ص 63.

⁶ - الدين الأصفهاني الكاتب (597هـ/1199م)، الفتح القسي في الفتح القدسي دار المنار سنة 2004م

ص 23.

⁷ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 11 ص 200، ابن كثير، البداية و النهاية ج 12 ص 336.

انتهت معركة حطين بنصر مؤزر للمسلمين، وصغار وخذلان للصليبيين، وقد قتل منهم بحسب ما رواه ابن الأثير ثلاثون ألفاً وأسر ثلاثون ألفاً، وكان في جملة من أسر الملك جان لوزجنان، وأرنات صاحب الكرك، ومقدم الداوية فسيقوا جميعاً إلى صلاح الدين حيث أحسن استقبالهم، ماعدا أرنات الذي قتله صلاح الدين وفاء لقسم له¹.

-حاصر بيت المقدس وفتحها على يد صلاح الدين سنة 583 هـ 1187م:

تعتبر موقعة حطين دون شك نقطة تحول خطيرة في مجرى تاريخ الحروب الصليبية، لأنها أذنت بفتح بيت المقدس، وذكر ابن الأثير أهميتها وخطورتها، وأشاد بها قائلاً: "وما أصيب الفرنجة منذ خرجوا إلى الساحل سنة إحدى وتسعين وأربع مئة إلى الآن بمثل هذه الواقعة"²، والذي يؤكد صحة كلام ابن الأثير أنه لم يمض إلا وقت يسير حتى تحقق له فتح بيت المقدس.

والذي نشير إليه في هذا المقام، أن صلاح الدين قد تعرض إلى نقد مر من طرف بعض المؤرخين أمثال ابن الأثير، ومرد ذلك لسياسته التي انتهجها؛ والمتمثلة في السيطرة على الموانئ الساحلية لبلاد الشام، وكان من المفروض حسب ما يراه ابن الأثير، أن يتجه صلاح الدين بعد حطين صوب بيت المقدس؛ ليستولي عليها في سهولة، بعد أن غدت تلك المملكة دون ملك ولا جيش يدافع عنها³، ويمكن لنا أن نعتذر لصلاح الدين كونه أراد أن يحرم الصليبيين من أي معونة أو مدد يصل إليهم عن طريق البحر.

وقبل الخوض في حيثيات فتح بيت المقدس يمكن القول أن السلطان صلاح الدين سار نحو القدس بعد أن حقق هدفه في فتح المناطق الساحلية، لكن الصليبيين استغلوا الفرصة التي أتاحها لهم اتجاه صلاح الدين إلى الساحل بعد حطين، ووصف ذلك ابن كثير بقوله: "... فوجد البلد قد حصنت غاية التحصين وكانوا ستين ألف مقاتل..."⁴، وهكذا رفضوا النداء الذي وجهه إليهم صلاح الدين

¹ - ابن واصل، مفرج الكرب في أخبار بني أيوب، ج 2 ص 149.

² - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 11 ص 202.

³ - سعد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص 64.

⁴ - البداية والنهاية ج 12 ص 325.

لتسليم المدينة مقابل تأمينهم¹، عندما لمس السلطان صلاح الدين عناد الصليبيين في بيت المقدس، أقسم أن يستولي على المدينة بحد السيف، فبدأ الهجوم عليها من الجهة الشمالية في 20 سبتمبر 1187م // 583هـ، واستبدل الصليبيون في الدفاع عن المدينة حتى قال عنهم ابن الأثير: "وقاتل الفرنج دون البلد قتالا هائلا وبذلوا أنفسهم وأموالهم في نصرة دينهم وقمامتهم"².

تمكن المهاجمون من إحداث ثغر في سور المدينة في الناحية الشمالية الشرقية منه، فأدرك الصليبيون استحالة المقاومة فأرسلوا في طلب الأمان، و من المؤكد حسب رواية ابن الأثير أن صلاح الدين رفض بادئ الأمر إعطائهم الأمان وقد عبر عن ذلك بقوله: "...فسقط ذلك الجانب وخر البرج برمته... فلما شاهد الفرنج ذلك الحادث الفظيع والخطب المؤلم الوجيع، قصد أكابرهم السلطان، وتشفعوا إليه أن يعطيهم الأمان فامتنع من ذلك وقال لا افتحها إلا عنوة كما افتتحتموها أنتم عنوة، ولا أترك بها أحدا من النصارى إلا قتلته كما قتلتم أنتم من كان بها من المسلمين"³.

ونستنتج من هذا النص أن صلاح الدين كان يعلم مصير المسلمين عند احتلال الصليبيين لبيت المقدس، وكيف قتلوا جميع المسلمين بها، وذلك منذ أزيد من تسعين سنة..

-دخول المسلمين بيت المقدس سنة 583 هـ 1187م:

وافق السلطان صلاح الدين في آخر الأمر على إعطائهم الأمان بعد أن هدد قائدهم بتخريب بيت المقدس، وطمس المقدسات، وقتل جميع من بها من الأسرى المسلمين، وقتل نسائهم وذرايعهم، وقتل حتى دوابهم.

وقد بلغ نبل المسلمين أوجه، لما غلب صلاح الدين على بيت المقدس، فقد أُشير عليه أن يقتحم المدينة ويقتل من فيها، ويأخذ بثأر المسلمين مما فعله الصليبيون، عندما دخلوا القدس فجعلوها "مخاضة من الدماء" فأبى وأرسل من يبلغ المعتصمين بالمدينة أن من يريد الخروج منها فليخرج سالما آمنا، وأرسل إلى من كان بها من الأميرات يعرض عليهن أن يخرجن مكرمات مصونات، كما فرض دية

¹ - سعد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص 66.

² - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 11 ص 220.

³ - نفسه ص 221، البداية والنهاية ج 12 ص 325.

صغيرة على من يخرج من المدينة، قدرها عشرة دنائير على الموسرين، ودينار على الفقراء، وخرج أحد البطارقة ودفع عشرة دنائير، ولكنه خرج في عربة تحمل ما في كنيسته من صور وتحف قد تكون من ذهب وفضة فلم يتعرض له أحد¹.

أما الفقراء فقد علم صلاح الدين أن أربعة آلاف منهم لا يجد الواحد منهم دينارا يدفعه، فدفع من ماله الخاص ديتهم وخرجوا من الحصار².

مما سبق نلاحظ أن صلاح الدين كان حريصا أشد الحرص على المحافظة على المقدسات الإسلامية، وعلى حفظ أرواح الناس، فقد عرف عنه تحليله بصفات التسامح، والشهامة والمروءة والبعد عن التطرف.

ومنه أيضا، أن المسلمين ديدهم، أن يطيعوا الله في من عصى الله فيهم، وقد ضربوا بذلك أسى المثل.

ضف إلى ذلك ، أنهم كانوا ولازالوا متميزين بدينهم الذي يهدي إلى أحسن الاخلاق وأتمها اقتداء برسولهم الكريم صلى الله عليه وسلم .

وكذلك، فأن الصليبيين لما ظهروا طغوا وتجبروا، وعاثوا في الارض فسادا، أما المسلمون لما ظهروا تواضعوا لله وعفوا وغفروا.

وهكذا دخل صلاح الدين بيت المقدس يوم الجمعة 583هـ أكتوبر 1187م ووافق ذلك ذكرى الإسراء والمعراج.

الخاتمة :

من خلال هذا العرض الموجز لتاريخ بيت المقدس بين استيلاء الصليبيين عليه، واسترجاعه من طرف المسلمين على يد صلاح الدين رحمه الله نستنتج مايلي:

-المكانة العظيمة لبيت المقدس في حياة المسلمين والصليبيين.

-قدم الصراع بين المسلمين وغيرهم على بيت المقدس.

-تعلق تاريخ بيت المقدس بتاريخ الانبياء والرسل عليهم السلام.

- تسامح المسلمين مع غيرهم من الطوائف عند تغلبهم على بيت المقدس.

-غطرسة الصليبيين منذ زمن بعيد على مخالفتهم في الملة والجنس.

¹ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 11 ص 222.

² - عبد الحميد الكاتب ، القدس ، دار الشروق ، القاهرة ص 83.

-لسقوط المسلمين عبر التاريخ أسباب كثيرة و أهمها الفتن الداخلية، و البعد عن الدين.

-سنن الله في خلقه لا تتغير ولا تتبدل بتغير الزمان و المكان.

-نصر المسلمين مصدره الايمان و وحدة صفوفهم، وفي المقابل الانهزام و الفشل مصدره الفرقة التفرق و الاختلاف

-تعتبر مجازر النصارى وصمت عار في تاريخهم الديني و السياسي.

-إن الأمة الاسلامية رغم انهزامها وفشلها وذهاب ريحها في بعض مراحل التاريخ، إلا أنها لا تستسلم للعدو بل سرعان ما تنتفض لتعود إلى سالف قوتها.